

- 7 ينظر: حسن مندليل العكيلي: الخلاف النحوي في ضوء محاولات التيسير الحديثة، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، 2011م.
- 8 الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الباي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
- 9 محمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف القاهرة، الطبعة الرابعة، 2011م.
- 10 ينظر: أحمد مختار عمر: معجم الصواب اللغوي، دليل المثقف العربي، عالم الكتاب، الطبعة الأولى، 2008م.
- 11 ينظر: أحمد درويش، إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، تطوير اللغة العربية، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2006م.
- 12 ينظر: عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010م.
- 13 شوقي ضيف : تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نصح تجديده، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1986م.
- 14 ينظر: عفيف دمشقية، خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي (الأخفش - الكوفيون)، دار العالم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1982.
- 15 ينظر إبراهيم أنيس: من أسرار العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة 2010م.
- 16 يوهان فك: العربية في اللغة واللهجات والأساليب، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالز، ترجمة : رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.
- 17 ماجد الصايغ :الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية ، دار الفكر اللبناني ،بيروت ، الطبعة الأولى ، 1990م .
- 18 ينظر: علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، دار النهضة، مصر، القاهرة، 1971م.
- 19 مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974م.
- 20 ينظر: محمد ضاري حمادي: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م.
- 21 ابن جني: الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1952م.
- 22 حسن عودة: اللغة والنحو، الاسكندرية، مطبعة رويال، 1952م.
- 23 سامي سليمان أحمد :البداية المجهولة لتجديد الدرس النحوي في العصر الحديث (القرن الثامن عشر وكتاب بحث المطالب)،تقدم حسين نصار،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2004م .
- 24 عبد الرحمان الحاج صالح :أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية ، مجلة اللسانيات ،معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر ، العدد الرابع ، 1974 م .
- 25 إبراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية، دار المعرفة، مصر، د ط، د ت، ص 281 40
- 26 ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1958.

التجليات المعرفية للأسلوبية

الدكتور :حفيظ ملواني

جامعة البليدة 2

قد يكون من باب المصادفة أو بمثابة نتيجة تاريخية حتمية ظهور مضمار المعرفة الذي تشتغل عليه الأسلوبية المعاصرة (la stylistique contemporaine)توافقا مع لحظة أفول البلاغة الكلاسيكية إذ "تعد الأسلوبية الوريث المباشر

للبلاغة: لقد كان من أولى تواردات المصطلح عند نوفاليس التطابق مع الأسلوبية. فلقد عبر المصطلح خلال القرن 19 من اللغة الألمانية إلى اللغات الأوروبية الأخرى و خاصة الإنجليزية و الفرنسية، إن ولادة هذا العلم في نهاية القرن 19 لتعد علامة على الاستغناء عن البلاغة¹ و من ثمة بزوغ الدرس اللساني الحديث مع مطلع القرن العشرين؛ غير أن المسألة لا يمكن أخذها بهذه البساطة كتحصيل حاصل؛ و لعل ما يبرّز هذا المنحى هو اشتغال خلفيات معرفية متجذرة قبل أطروحات فردينان دي سوسير (**Ferdinand Dessau sure**) بالنظر إلى اعتبارات فلسفية محضة و جهود لغوية ارتبطت أشد الارتباط بقضايا علم النفس في عمومها و علم النفس اللغوي على وجه التحديد

1- الدراسات النفسية للغة

لقد اعتنت هذه الدراسات باللغة من زاوية المنشأ و الوصف و الاكتساب مند منتصف القرن 19 حيث كان المحرك الأساسي لهذا التوجه هو إدراج فعل أداء التعبير ضمن الإشكالية القائمة بين منطلق تشكيل الفكرة و حدود صياغتها الفعلية² ليصير حينئذ صلب الموضوع المعالج منصبا على مبدأ محاولة تفسير ظواهر لغوية فردية بناء على محدّدات فلسفية فالمقاربة تذهب إلى وجود صنفين من اللغة؛ لغة حسية صوتية فيزيائية ظاهرة و لغة مستمدة من أعماق النفس الإنسانية؛ إنهما لغة باطنة وقد نسميها لغة ذهنية (**un langage mental**) وفق المفهوم المعاصر و من هذه الزاوية تحديدا يرى القديس أوغسطين (**Saint augustin**) بأن النفس الإنسانية تحدث نفسها بنفسها انطلاقا من هذه اللغة الباطنة³ و مآل ذلك بمجرد أن يتكلم المرء فإنه يفكر و عليه يصير الملفوظ عبارة عن انطباع صريح لما تريد النفس الإنسانية الإفصاح عنه؛ في حين تأخذ الكلمات المكتوبة صورة رمزية تماشيا لما شيدته الأصوات من ألفاظ، فيكون من فعل التلفظ و منه التحدّث هو أثر للفكر و في الوقت ذاته يعكس رؤية ما بمنطق أن "وظيفة الظاهرة اللغوية متمثلة في أنها تعمل على كشف ما في الفكر البشري من معان و تصورات، فغابيتها من الوجهة الوظيفية التعبير عن عملية التفكير لدى الإنسان بما يفرضي إلى تطابق مضمون اللغة مع مادة العقل"⁴ و هذا من باب الافتراض لا الحقيقة المطلقة؛ و عليه فقد يبدو الأثر النفسي عند معاينة الظاهرة اللغوية جليا؛ من منطلق أن الصورة الكلامية باعتبارها نظاما تجميعيا ترابطيا لشبكة من العلامات فهي تؤدي عدة وظائف تجسيدا لملكات النفس الإنسانية على نحو القدرة على إصدار الأحكام و التعبير عن الأحاسيس أو ترجمة إرادة ما؛ معنى ذلك سيقع التحوّل من لغة التفكير (**langage intellectuelle**) إلى لغة التأثير (**langage affectif**) و من هذا المنحى تحديدا؛ تفرعت الدراسات النفسية من حيث اهتماماتها إلى ثلاثة ميادين محورية حيث اعتنى المجال الأول بالظواهر الذهنية من إدراك و تذكر و تخيل و تفكير و تعلم و ابتكار أما الجانب الثاني فاقصر على الجوانب السلوكية أي كل ما له صلة بمحركة أو لفظ أما المجال الثالث فانصب تركيزه على الأمور الانفعالية من تأثيرات وجدانية مختلفة كالإحساس باللذة أو الألم⁵ غير أنه سرعان ما أثبت علم النفس التحريبي فعاليته و هو يلازم اللغة ضمن الصورة العلمية إذ وقع التحوّل من مضمون الملكات إلى تفعيل النشاط الذهني و بالرغم من صعوبة الفصل بين مقررات علم النفس الفلسفي مقابل ما يرمي إليه علم النفس الحديث فيبقى هاجس التداخل

¹ -Saint Augustin .De Trinitate .xV .x.p17

² -عبد السلام المسدي .اللسانيات و أسسها المعرفية .المؤسسة الوطنية للكتاب /الدار التونسية للنشر ص 27

³ - أحمد عزت راجح . أصول علم النفس . دار الكاتب العربي للطباعة و النشر القاهرة ط 7 / 1968 ص 5

⁴ - Humboldt Wilhelm Von Humboldt.trd :P.Caussat .Introduction a l'œuvre sur le Kavi Ed Seuil paris 1974 p 21.

⁵ -عبي الدين محسب . اللغة و الفكر و العالم . الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان ص 11.

الحاصل بين الجانبين النفسي و اللغوي أمرا حاصلًا لا مفر منه ، كما فرض البعد النفسي في كثير من الأحيان سلطته على اللغة مما كان ممهدا صريحا لبناء علم نفس خاص باللغة تحت مسمى علم النفس اللغوي الذي يدين كثيرا إلى قراءات الفلاسفة للغة وتحديدًا ما كان له صلة بفلسفة اللغة إبان القرن 19 و أقصد الجهود الألمانية ضمن هذا المسعى ؛ يعلل ذلك ما تحقق مع ويلهلم همبولدت (Wilhelm Von Humboldt) عندما ربط المنظومة اللغوية بالكيان النفسي بحيث لا ينبغي أن نحصر وظيفة الكلمات من موضع الإشارة إلى الأشياء و من ثمة الموجودات كي نتعرف عليها و ندرك ماهيتها فحسب¹ بل المسألة تتعدى وظيفة التفكير و التمثيل إلى حدود ما يستطيع أن تثيره تلك الألفاظ من معاني في مخيلة المرء مما يجعل التعرف على شيء واحد مقترن بالتعرف على أشياء أخرى متشابهة أو مختلفة كل هذا ماله الصلة الوثيقة الرابطة بين مقوم اللغة و الفكر مما يفضي الخصوصية في التعبير بحيث تصير كل أمة بواسطة لغتها تحدد قيمتها التبليغية وفق معتك قومي مذهبي إن صح التعبير، فتحقق فردانيتها على أساس الوجه القومي؛ فتصير اللغة بذلك تعكس فكرا و قيما تبنى على أساسها كل أمة من الأمم و من المفيد الإشارة إلى كون "التفكير لا يعتمد على اللغة في عمومها و إنما يعتمد إلى درجة معينة على كل لغة بذاتها"²، مما قد يجعل على وجه الضرورة طريقة التعبير تنتج بدورها طريقة خاصة في التفكير فوفق هذه الوتيرة ما يهيم الأسلوبية تحديدا هو الحديث عن هذه الطريقة و محاولة فهم طبيعتها و النظر في أدائها و مقومات التأثير لديها؛ وبذلك يكون قد وقف على المنظومة التأسيسية المعرفية للأسلوبية عبر مجموعة من الثنائيات و الأسس انطلاقا من اللغة و القومية ، صلة اللغة بالفكر ، اللغة و الفرد ومنه يتحدد مبدأ اشتغال اللغة بالقدر الذي يميزها عن اللغات الأخرى. و لعل منظور الباحث الألماني كارل فوسلير (Karl Vossler) في شأن ثنائية اللغة و التعبير من قبيل الربط بين المنحى الجمالي و النفسي وهو بصدد انتقاده للمدرسة الوضعية (l'école positiviste) التي جعلت من اللغة بنية مادية صرفة شبيهة بالظاهرة الطبيعية قابلة للتحليل بشكل جزئي تشريحي من الصوت إلى اللفظ إلى التركيب ومنه إلى الدلالة بذريعة الاستجابة إلى الضرورة العلمية البحتة بخلاف التعبير الذي هو من صميم العملية الإبداعية في ظل الخيارات الفردية المحضة و عليه فهو ينفي هذا الموقف ليؤكد بأن صفة اللغة هي تطويرية بالدرجة الأولى على أساس أنها معادلة للتعبير الروحي، فاللغة تستمد تطورها من خلال تطور الأشكال التعبيرية و منه يصير التعبير ذاته بعبارة أخرى الأسلوب هو أنسب آلية لوصف الظاهرة التي يستهدفها علماء اللغة يتحقق ذلك المنطق من قبيل "إن من يستخدم المقولات النفسية في دراسته اللغوية كمن يمشي على حرف جبال فاصل بين ماءين: فنظره يقع من ناحية على الوديان والمصادر المتعلقة بالإشارات النفسية للمتحدثين الفرديين ، و يلمح من ناحية أخرى الأنهار الجارية و نظم تطور اللغة وينحدر السفح الأول إلى السهول الفردية و الشخصية للغة إلى مجالات علم الأسلوب و تاريخ الأدب ؛ أما السفح الآخر فإلى مناطق الجماعات و القرابات اللغوية ؛ إلى ميادين النحو المقارن"³ فما يبعث إلى هذه القناعة العلمية لدى كارل فوسلير هو تأثره الواضح بمنطق الأطروحة اللسانية عند همبولدت و الفلسفة الجمالية لدى بنيديتو كروتشييه (Benedetto Croce) التي تقرّ بأن العنصر الجمالي هو الكاشف للحقيقة النفسية لدى المبدع⁴

¹ - صلاح فضل . علم الأسلوب . مطابع الشروق القاهرة / بيروت ط 1998 ص 47

² - Benedetto Croce.trd: H. Bigot. V. Giard et E. Brière .Esthétique comme science de l'expression et linguistique générale ed 1904

³ - حلمي المليحي. علم النفس المعاصر . دارالنهضة العربية بيروت ط 2 1972 . ص 47 .

⁴ - نايف خارما . أعضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة - ع 9 سبتمبر 1978 سلسلة عام المعرفة المجلس الوطني للثقافة الكويت ص 116 .

2- الأسلوبية و منظومة علم النفس اللغوي

إن استبدال مقولة الدراسات النفسية ذات الخلفية الفلسفية بعلم النفس اللغوي هو جدير بتكريس القطيعة بين الباحث الفلسفي الميتافيزيقي و البعد النفسي التحريبي المشبع بأطروحات المدرسة النفسية التحليلية لتصير منهجية البحث النفسي عندئذ قائمة على محاولة تفكيك بنية الوعي إلى عناصره الجزئية حتى تتم عملية إدراك آلية الترابط بين الواقع الذهني و من ثمة النفسي للإنسان وسلوكاته العملية بما في ذلك ما يتعلق بفعل الكلام؛ ليتقرر في هذا المطلب استكشاف ماهية الفرد النفسية عبر مقاربات فيزيولوجية اعتمادا على قاعدة النظرية السلوكية عند بافلوف (Pavlov) وفق مبدأ الانعكاس الشرطي¹ و كيف يمكن للمرء مع خصوصيته أن يتكيف مع الوسط الذي يعيش فيه، فإن كان السلوك في عموم له مدلول نفسي عميق عبر فعل الملاحظة والمعاناة التجريبية؛ فنلمح بأن فعل الكلام يخدم بشكل كثير هذا المنحى؛ و كل هذا يكون قد انعكس على ثنائية الفكر و اللغة قياسا على الخنز و الاستجابة فاللغة تصير عبارة عن "ردود فعل أو استجابات لمؤثرات خارجية يصبح الشكل المقبول اجتماعيا منها عادة لدى الفرد عن طريق الثواب الذي يقدمه له المجتمع"²، يشير في هذا السياق الباحث المعاصر إتيان كرابتيان (Etienne Krabetian) إلى فضل كثير من الباحثين اللسانيين تحت لواء النحو المقارن (la grammaire comparée) و الدراسات التاريخية المقارنة بين اللغات منذ القرن 19 في تأسيس صرح الأسلوبية و بشكل مباشر ما يعرف بالأسلوبية العقلانية (la stylistique rationnelle) و الأسلوبية المقارنة (la stylistique comparée)³ من أمثال أنطوان مايي (Antoine Meillet) الذي أقرّ وجه صلة اللسانيات بعلم النفس بذريعة أن كل فعل تعبيرى لغوي يشكل في ذاته نشاطا نفسيا بامتياز ما يبرّر استفادة الدراسات اللغوية من منجزات علم النفس⁴ و جهود رجل الدين فان جينكن (Van Ginneken) في شأن الحقل اللساني من خلال العديد من الدراسات؛ و على وجه التحديد ما ورد في كتابه الموسوم بمبادئ اللسانيات النفسية (principes de linguistique psychologique) الصادر سنة 1907 حيث قام بتعداد التغيّرات التي مست الجانب اللغوي التعبيري المتعلقة بالألفاظ عبر المنحى التاريخي من خلال المستوى الصوتي و التركيبي والدلالي لها؛ فوجد أن هناك صلة قوية بين ما يدركه المرء مقابل ما يستعمله ضمن مسار ثلاثي المنحى ينطلق من تفعيل الإحساس ثم تفسيره وصولا إلى نطاق الدلالة الملازمة للفظ أو التركيب اللفظي على حدّ سواء، فيقيس بذلك أثر الإحساس في تفعيل الكلام⁵، و هذا ما قد يعكس بصورة مباشرة فرضية إمكانات الأنا باعتبارها لها صفة القابلية و الاستجابة و من ثمة القدرة على التعبير في وجود المنبه الحسي؛ يفهم من ذلك أن تسمية الأشياء ومنه الإحالة إلى مدلولاتها قد يتوقف على مبدأ الانطباع الذاتي النفسي الخالص و ليس من قبيل البعد الموضوعي الذي يمنح لك

¹ - Etienne Karabétian. Histoires des stylistiques. p48

² - Antoine Meillet . revue Scientia vol 33.n132p263-270

نقلا عن المصدر السابق ص 48 .

³ - Jacobus Johannes Antonuis Van GinneKen .Principes de la linguistiques psychologique paris 1907

نقلا عن المصدر السابق ص 51.

⁴ -Ferdinand Bruno.la pensée et la langue .Paris Masson et Cie 1965. p51-52

⁵ -Albert Charles Séshéhayé .programme et méthodes de la linguistique théorique : Psychologie du langage .Paris ; champion et Genève ;Harassowitz 1908 p79

نقلا عن: Etienne Karabétian. Histoires des stylistiques p 103

فرصة التعرف والتحليل و من ثمة إيجاد معنى أي إحساس يسير بطريقة عفوية و آنية لحظة حصول التعالق بين الذهن والموجودات الأخرى؛ و إن أردنا أن نعلل صلة هذا المنظور الحسي المعنوي بالبعد الأسلوبي، فينتين لنا أن مصدر وجود التعبير هو الذي يحقق مغزى وجود الأسلوب كتحصيل حاصل فندرك بأن الإحساس هو مبعث الدلالة في أي فعل تعبيرى يقدم عليه المتكلم؛ و يحسن التذكير بحسب اجتهادات فردينان برونو (Ferdinand brunet) الماثلة في منجزاته اللغوية كـ "تاريخ اللغة الفرنسية" الصادر سنة 1905 "تعليم اللغة الفرنسية" الصادر سنة 1909 إضافة إلى مؤلفه الموسوم "اللغة و الفكر" الصادر سنة 1922 بحيث إن أغلب هذه الأبحاث ترمي إلى الإقرار بخصوصية التعبير وفق المنظور اللغوي الذي يؤسسها انطلاقاً من مبدأ الفصل بين النحو و المنطق و التحفظ من المنهجية الوضعية (méthode positiviste) في التعامل مع اللغة و التركيز على فعل الملاحظة مع الاعتراف بأهمية الوظيفة الاستقرائية دون الاستنباطية في تحديد النتائج الوصفية للغة؛ فنكتشف حينها بأن التأليف بين الألفاظ لا يقتصر على حدود القواعد النحوية بقدر ما تلميه الممارسة الكلامية؛ و لنا في ذلك أن نستند إلى لغة الطفل و تعبيراته و عليه سندرك الأسلوب على قدر اشتغال الأسلوبية في رصد العلاقة بين اللغة و الفكر / الشكل و المحتوى فحينئذ يعي الباحث بأن المسألة ليست نفسية محضة و لا لغوية صرفة فبدلاً من أن نركز على نظام التأليف بين الألفاظ يحسن الاعتماد على آلية الربط بين الأفكار¹

3- مجرى الوظيفة التعبيرية للأسلوب

لا ينبغي إدراج هذا التوجه بشكل آلي ضمن سياق الأسلوبية التعبيرية التي يحث عليها مشروع شارل بالي (Charles Bally) و إنما بحسب قراءة العالم السويسري شارل ألبري سيشيهاي (Charles Albert Séshéhay) للثنائية الحاصلة بين اللغة و الفكر و هو بصدد رصد الفضاء التعبيري ضمن هذه الثنائية مع محاولة الفصل بين المسائل النحوية المجردة باعتبارها منظومة قانونية و الإشكاليات النحوية المترتبة عن أداء الوظيفة التعبيرية، فبقدر ما لا يثير مبدأ نظامية اللغة اختلافاً؛ فالفعل التعبيري ليس كذلك نتيجة البعد الانفعالي العاطفي الذي يصاحبه؛ و قد يحصل قدر من التضاد بين البعد التفكيري الذي يحاول أن يخضع إلى نظامية اللغة أثناء أداء الوظيفة التعبيرية و البعد الانفعالي الذي ينساق في اتجاه التمرد؛ ليس من قبيل الإرادة في حرق القاعدة النحوية و إنما بسبب العفوية و شدة المثير الانفعالي الذي يلازم صناعة التعبير، يقدم سيشيهاي في سياق هذا التوجه مجموعة من الأسس التي تدعو بصريح العبارة إلى ضرورة التمييز بين البعد النحوي و ما قبل النحوي (pré grammaticale) فالأول يستقيم مع الحياة الفكرية للإنسان و الثاني هو أكثر ارتباطاً بالحياة الانفعالية العاطفية؛ ما يفسر بأن النحو على هذه الشاكلة هو و طيد الارتباط بالمواضع و الملاءمة وفق ما تستدعيه الجماعة البشرية² كما يتعدى حصول وضع التألف بين المنظومتين اللغوية و الفكرية إلا بفضل العامل النفسي؛ و لعل عجز آليات التعبير اللفظي في بعض الأحيان عن تلبية الحاجيات النفسية لدى المتكلم أكبر دليل على ذلك؛ و منه يتعدى التوفيق بين المطلب الفكري النفسي و النظام النحوي المجرد في كل الأحوال، و تبعاً لذلك حسب أطروحات سيشيهاي ينبغي إصلاح أو بالأحرى تجديد المنظومة النحوية التي تراعي واقع الاستعمال المتغير في شأن اللغة ليتبين من هذه العتبة ذاتها أثر استدعاء الأسلوبية في هذا المضمار؛ و هي التي تنظر في

¹ - Albert Charles Séshéhay .la stylistique et la linguistique théorique. Ed Mélanges Saussure Paris ; champion 1908 p 173

نقلا عن المصدر السابق 108 .

² -Pierre Guiraud.la Stylistique .Ed p u f Paris1972. P37.

الوسائل التعبيرية و متغيراتها؛ مما يوحي بأنّ الأسلوبية هي علم لغوي بالدرجة الأولى لا يخرج عن إطار البحث اللساني، و هذا ما قد يفرض على المنظرين تأسيس علم يحفظ مبدأ الفصل بين المجال العاطفي و الجانب الفكري و هو بصدد متابعة تشكيل العملية التعبيرية؛ فهو إيذان بمنطق سيثيهاي بدراسة لغة الإحساس بأدوات لا صلة لها بلغة التفكير بالرغم من أن الأفكار تحمل في طياتها تجارب عاطفية يصير لها معنى بواسطة اللغة، و لذلك بقدر ما تستطيع الألفاظ أن تعكس أفكارا معينة فهي غير قادرة أن تترجم الأحاسيس بكامل حمولتها؛ فقد يسعى المكوّن اللغوي أن يتوافق مع المحتوى الفكري؛ بالمقابل قد لا تتطلب الأحاسيس النمط نفسه من اللغة مما يفترّ اتساع رقعة التباين الحاصل بين ما تعبّر عنه اللغة من الناحية الفكرية مقابل ما تستطيع أن توصله من الناحية العاطفية؛ و لذلك سرعان ما يقع على عاتق الأسلوبية أن تؤدي هذا الدور فتشغل هذه الهوة فتصير بمثابة العلم الذي يراعي التركيبة اللغوية في ظل اشتغال البعد الفكري و الهاجس الحسي الانفعالي؛ فمنطقة الأسلوبية هي المساحة التقاطعية بين الجانب الموضوعي في اللغة باعتباره منظومة اصطلاحية توافقية اجتماعية و الجانب الذاتي الذي تحركه انفعالات حسية على قدر اختلافها وتعّدها؛ لا تقبل الظهور و التجلي بوجهها الصريح؛ و كأنك تستطيع أن تعبّر عن أفكارك إن تحكمت في شرط الصياغة اللفظية و حرصت على التعبير السليم؛ لكنك قد لا تستطيع ترجمة جميع أحاسيسك عبرها لأنها لا تتمّ عن توافق و اصطلاح و غير قابلة للاستنساخ من ذات إلى أخرى¹ و عليه فيبدو أن العالم ألبير سيثيهاي مقتنعا بأنّ الباعث اللساني و منه الإطار اللغوي النحوي هو جدير بتأسيس هذا العلم أي الأسلوبية و ليس من موقع الحرص على استيعاب آلية الإفصاح عن الأحاسيس بقدر ما يتطلب الوضع ضرورة إدراك أن مجرى هذه العملية يدخل في صميم العملية التواصلية؛ فهي تستحق المتابعة لأن مبعث التواصل الذي يقع بين الأفراد لا يتحقق إلا بانتقال الأفكار دون الحسم في انتقال الأحاسيس بصورة متطابقة في الوقت نفسه؛ فالمرء يسعى في اتصاله على تأمين الفهم، فهو استدعاء لبناء الأفكار و لذلك لا فهم دون تواصل و لا تواصل دون فهم؛ كما أن المحسوس سرعان ما قد يقود إلى التجريد والتجريد بدوره في حاجة إلى المحسوس حتى تستكمل العملية التواصلية آخر أشواطها بصورة فعالة

4- منجزات القرن العشرين

لقد أسفر التعامل مع الظاهرة الأسلوبية حسب تصور بيار غيرو (**pierre Guiraud**) في نطاقين: نطاق يقرأ الأسلوب باعتباره ظاهرة تعبيرية محضة لها صلة وثيقة بنظام التعبير تماشيا مع اصطلاح الأسلوبية الوصفية التعبيرية بزعامة شارل بالي (**Charles Bally**) و اتجاه آخر ينظر من الزاوية التي صدر منها الأسلوب تحت مسمى الأسلوبية التوليدية أو أسلوبية الفرد بمنظور ليو سبيتزر (**Leo Spitzer**)²

قد تصدق عبر هذا المنحى التاريخي فكرة مسعى التخلص من المعيارية و الاعتناء بالمظهر اللغوي في نطاق الوصفية تماشيا مع مبدأ ما هو كائن؛ و هذا ما دفع شارل بالي تلميذ عالم اللسانيات الحديثة فردينان دي سوسير أن يحاول تشييد علم جديد يعتني بالوجه التعبيري للغة مدركا في ذلك بأن أي تعبير سيترك مفعوله التأثيري لدى منتج و متلقيه على حدّ سواء و هذا ما جعل أسلوبيته التعبيرية هي في حقيقة أمرها أسلوبية التأثير³.

¹ - Charles Bally .traité de stylistique française Editions KLINCKSIECK.PARIS 1951 p16

² - Etienne Karabétian . Charles Bally .Sur la stylistique. Eurédit Paris .Juin 2007 .P15.

³ -Pierre Guiraud.la Stylistique. p47.

مبدئياً نخطط بالاختلاف الحاصل حول ما يعني استخدام مصطلح الأسلوبية إذ تبين أن ما تمّ توظيفه على أساس أنه أسلوبية في سياق الدراسات الألمانية للأسلوب من طرف هرلينغ (Herling) وهو يشير إلى مدلول فن الكتابة بما في ذلك ما ورد في قاموس نوفاليس (Novalis) سنة 1872 لا علاقة له بما يصطلح عليه شار بالي تحت مسمى الأسلوبية في مؤلفه "بحث في الأسلوبية الفرنسية" (*traité de stylistique française*) الصادر سنة 1905 بالمقابل تتجه العناية بأكثر صلة ما أقدم عليه ستاينتال (Steinthal) في مداخلة صدرت سنة 1866 عنوانها "حول الأسلوبية" (*Sur la stylistique*) و هو يحاول ربط المحتوى المعرفي للأسلوبية بمجال التاريخ الأدبي دون الفصل القطعي عن البحث اللساني من خلال أبعاد ثلاثة :

أولاً : يمكن للمظهر التعبيري الصادر من صاحبه (الكاتب) على مستوى الشكل أن يعكس الطابع الذي يميزه في الاعتبار الأول و ما تحمله القومية التي ينتمي إليها من خصوصية في المقام الثاني

ثانياً : إثبات الصلة بين المظهر الصوتي الفيزيائي الظاهر لدى المتكلم و الجانب النفسي الباطني لديه

ثالثاً : معالجة الظاهرة اللغوية في نطاق استخدامها مع مسعى ضبط علاقتها بإشكالية المعنى المتولدة منها¹

لقد رفض شارل بالي دراسة النص الأدبي بمنطق جعل العملية اللغوية و منه التعبيرية مقتصرة على فعل إرادة الكاتب صاحب النص الأدبي و نتاج وعيه الخالص و لو اعتمدنا هذا المنطق نكون قد جردنا اللغة من إطارها الموضوعي فمهما تغير الفرد فينبغي علينا أن ندرك بأن اللغة تعكس في إنتاجها وواقعها أثراً تعبيرياً حاصلًا؛ إذا هناك صورة موضوعية تتجلى في هذا السياق و هذا ما يفترض النظر فيه ضمن هذا العلم الجديد "علم الأسلوب" حسب شارل بالي باعتباره منظومة كلية شاملة تتجاوز الحالة الفردية، فبقدر ما حرص شارل بالي على استبعاد المنحى الأدبي من المركز و تغليب المجال اللغوي التعبيري بالدرجة الأولى مع محاولة إعطاء للبعد التعبيري صورة موضوعية² فإن أتباعه ساروا في الاتجاه المعاكس له من خلال جول ماروزو (*Jules Marouzeau*) في كتابه محددات الأسلوبية الفرنسية (*Précis de Stylistique française*) الصادر سنة 1946 و مارسيل كريسو (*Marcel Cressot*) عبر مؤلفه الصادر سنة 1947 بعنوان الأسلوب و تقنياته (*Le Style et ses techniques*) و العلة في ذلك أن العملية في سياق حركيتها الجمالية غير قابلة لأن تتحقق؛ ما لم تدرك في مضمار العملية التواصلية، فالكاتب عندما ينتج نصاً فهو يوظف وسائل تعبيرية خاصة به؛ يجد فيها السبيل الذي يمكنه من الاستحواذ على القارئ أو على الأقل يجد لديه قدراً من المساندة التي يحتاجها للأسلوبية التي يعينها كريسو لا تخرج في عمومها عن المبادئ التي يسعى شارل بالي إلى تطبيقها في ضوء اشتغال العملية التعبيرية؛ غير أنه يريد تدارك الآلية العلمية التي تمكنه من رصد الحقل التعبيري الأدبي قصد رسم معالم الكتابة الأدبية ليس من أجل نمذجة التعبير الأدبي بعينه؛ و إنما حتى يتشكل لدى المرء المهتم صورة عامة عن خيارات التعبير الممكنة التي يقدم عليها الكاتب³ فتسهل بذلك عملية التحقيق و تحديد هوية النص الأدبي من قبيل انتسابه لكاتب دون آخر فتحل بذلك إشكالية العمل الأدبي الموسوم بمجهول المؤلف، فما يترتب عن ذلك في هذه الواجهة تحديداً حسب تقديرات دومينيك كومب (*Dominique combe*) في إطار مسعى تطبيق الأسلوبية على النص

¹ - Etienne Karabétian. Histoires des stylistiques p126.

² - Dominique combe. Pensée et langage dans le style In qu'est ce que le style ? Actes du colloque Internationale 11oct 1991 université de Paris Sorbonne PUF Paris 1994.p75.

³ -LEO SPITZER. Etudes de style .Ed Gallimard Paris 1970 . p50-53

الأدبي من طرف كل من كريسو و ماروزو هو بطريقة أو بأخرى لا يصب في مشروع شار بالي بقدر ما هو استدعاء للأسلوبية التوليدية لأنها دراسة جديدة بأن تكون في سياق فن الكاتب (**l'art de l'écrivain**) في ظل غياب التوافق بين ما يعكسه الفكر (فكر المؤلف) مقابل ما يلمح إليه التعبير¹ و يبدو حسب المهتمين بالجانب التاريخي للأسلوبية لم تكن اجتهادات شارل بالي و أتباعه وفق الصورة المرجوة حتى يتأسس كيان هذا العلم الجديد مقارنة بأطروحات أحد المتخصصين النمساويين في الفيلولوجيا (**la philologie**) صاحب الثقافة الموسوعية في مجال اللغة و الأدب على حد سواء ألا وهو ليو سبيتزر و لعل أبرز إنجاز صدر منه تعلق بكتابه الموسوم دراسات في الأسلوب (**Les études de style**) الذي خصّ عنايته بالعمل الأدبي مستأنسا بمعالم التأريخ الأدبي؛ تتمثل طريقة معالجته في رصد الظاهرة اللغوية في أدق تفاصيلها لبناء فرضية تحدد بشكل انتظامي استرسالي البعد الإتيولوجي في تحديد أصل التسميات المعتمدة لدى خبراء الفيلولوجيا، فحركيته النظرية تتجه في بسط المظاهر الأسلوبية اعتمادا على مبدأ الاستنباط و الاستقراء الحاصل بين الفرضية و ما يسندها في إطار نسق تعبيرى محدد و سند تفسيري يعلل وجوده² فما يصبو إليه ليو سبيتزر على ما يبدو من قراءة الظاهرة الأسلوبية هو رصد الإنزياحات الممكنة الواردة في ثنايا الخطاب الأدبي و تحديدا النص الروائي فيقرأ نتيجة ذلك العامل المشترك الذي يحكم هذه الإنزياحات مع النظر في سببه من موضع العلة الفكرية و النزعة النفسية التي تلازم حركية الإبداع عند الكاتب و المفيد في سياق هذا المنحى هو إمكانية تحقق فرضية التوحيد بين ثنائية الشكل و المضمون ليس على أساس منطق بنيوي محض و إنما بمنطق وجود وحدة عضوية (**une unité organique**) ملتحمة بين الفكر و الأسلوب المعبر عنه مما يمكن من تشكيل رؤية حول العالم (**vision du monde**) من منطلق الفرد إلى مستوى الجماعة التي ينتمي إليها³ و قد نجد أثر ذلك من موقف ليو سبيتزر من أسلوب الكاتب الفرنسي شارل لويس فيليب الذي يراه أنه يعكس بشكل غالب طريقة التفكير السائدة لدى الشعب الفرنسي آنذاك تجاوبا مع أحاسيسهم مقارنة مع تعبيراتهم اليومية و النموذج الذي يقدمه مستمد من رواية هذا الكاتب الموسومة ب (**بوبو موبرناس [bubu de Montparnasse] الصادرة سنة 1905**) حيث لاحظ وجود عبارة صادرة من الكاتب متمثلة في "بسبب هذا" (**a cause de**) أو توجي في عمومها بالسببية لأجل - لأن- (**parce que - car**) و هي جد متفشية في وسط المجتمع الباريسي تحديدا في فئة العاهرات و أصحاب السوء و قد تمتد إلى الصيغة التعبيرية لدى المجتمع الفرنسي ككل . إن التفسير الذي يقدمه ليو سبيتزر بالدرجة الأولى يعود إلى نفسية هذا الكاتب أي شارل لويس فيليب و لعل توظيف هذا النمط من التعبير السببي في سياقه الأدبي لهو انحراف عن المؤلف لأنه يحدث حيث لا نتظره و من ثمة يصير هو ذاته لغة شعر جاءت في حلة قصصية نثرية تترجم أحاسيس و هذا الأمر ليس من محض الصدفة إنه في اصطلاح ليو سبيتزر مثير شبه موضوعي (**motivation pseudo-objectif**) هذه المعايير انطلقت من التعبير إلى الأسلوب إلى ذهنية الكاتب ليجعل في آخر المطاف بنية تفكيرية سائد في القرن 19 لدى المجتمع الفرنسي⁴ و عليه فإن المظهر السببي القائم في هذا التعبير لا يعود إلى اختراع من الكاتب بل هو بمثابة قوة ضاغطة تصدر من المجتمع المحافظ كي يبرر وضع انزلاقا ته أو قد نقول تمرده بطريقة

¹ - Dominique combe .Pensée et langage dans le style .p80.

² - LEO SPITZER. Etudes de style .p 56-57.

³ -W. Dilthey Trd : M. Rémy .Origine et développement de l'herméneutique .In Le monde de l'esprit Paris Aubier 1947.p 322.

⁴ - Merleau-Ponty Maurice. Signes .Ed Gallimard1960.p26.

غير مباشرة عن القيم عبر آلية البحث عن الذرائع و هو ما يحصل في الغالب في الأمور العاطفية الغرامية الحساسة التي يشوبها الممنوع فالإبداعية التعبيرية تصير بالقوة إبداعية أدبية و لعل هذا المنطق الذي يفرض عنصر الاتساع من الفرد إلى الجماعة هي آلية هرمينوطيقية استمدت من المنظومة التأويلية عند ديلتاي (Wilhelm Dilthey) عبر ثنائية الجزء يؤدي إلى الكل والعكس صحيح تماشيا مع استخدام مصطلح الدائرة الهرمينوطيقية (le cercle herméneutique)¹

5- حاضر الأسلوبية و التقاطعات المعرفية

لا يمكن من الوهلة الأولى الإقرار بمبدأ أن الحاضر هو بالضرورة القطيعة مع الماضي من جميع النواحي و قد لا نبالغ من أن يكون الصرح الفلسفي و تحديدا الفينومينولوجي له دور فاعل في إثبات موقع الأسلوب من حيز الدراسات المعاصرة؛ بمجرد أن نستوقفنا أطروحات الفيلسوف الفرنسي موريس مارلو بونتي (Merleau-Ponty, Maurice) الذي تناول الظاهرة الأسلوبية بكل وشائجها من الزاوية الأدبية و النقدية معتمدا في ذلك على المعطيات اللسانية الحديثة انطلاقا من فرضية التوحيد بين اللغة والفكر ،فلسفة مارلوبونتي في المسألة تشيد بدور اللغة في صنع الخيال و من ثمة التماس أثر المعنى بشكل مباشر و عليه فكل لغة هي لغة عاقلة مفكرة و كل فكر لا يسعه أن يتأسس إلا في ظل هذه اللغة دون إمكانية الفصل بينهما² مآل ذلك هو الإقرار بأن تشكيل الأسلوب منوط بخيارات التعبير اللفظي الواعية التي تنم عن القصد فتؤسسه في أعقاب ذلك و منه فالأسلوب و القصد شيء واحد ينبع من الوعي و الإرادة على حد سواء و منه تكون الأسلوبية في جعل هذه الخيارات محل الدراسة و التأمل قد لا تتوقف هذه الخيارات على مستوى اللفظ بل تتعداه إلى التركيب و كل ما من شأنه أن يفعل صناعة الخطاب في الوجهة القصدية المبيتة فإن كانت العملية الإبداعية بلغتها تأتي بشكل تلقائي عفوي فإن اللغة هي التي تمارس هذا الفعل الاختياري والأسلوب هو يتجاوز جدلية الشكل و المعنى ليرسم الوجهة القصدية على ضوء موقع الذات الواعية إزاء العالم الذي تعايشه وتستمد الرؤية منه طالما هي جزء منه غير منفصلة عنه³ إن من شأن هذا المنحى أن يعطي للأسلوبية موقع التقاطع مع التداولية بشكل لا غبار عليه ،فالرهانات التي تقع على عاتق الأسلوبية اليوم بعد أن كانت في مفترق الطرق و في ظل تأثيرات التداولية ومستحقات تحليل الخطاب فقد وضعت حيزها المعرفي وفق ما يجمع بين الاهتمام اللساني و قضايا النقد الأدبي في بعده النصي المخض كما استفادت الأسلوبية المعاصرة كثيرا من صرامة البحث اللساني تحديدا منجزات اللسانيات البنيوية في الستينات فراحت إثر ذلك تتحاشى الانطباعية و الحس الذوقي المبالغ فيه و تأخذ بعين الاعتبار المسلك الإحصائي في تعدادها للظواهر الأسلوبية النصية كما تجدر الإشارة إلى مساهمة الشكلانيين الروس و بشكل أخص جهود رومان جاكسون الذي أعطى للأسلوبية دفعا جديدا و نوعيا من منطلق أنه باحث لساني من خلال اعتماده على الآليات اللغوية في بسط تطبيقاته الأسلوبية على النصوص الأدبية مراعيًا في ذلك اشتغال النص بمنطق وظيفي تواصلية يتحقق على إثره مسمى الشعرية أي ما له صلة بالوظيفية الأدبية؛ إذا نحن في لحظة الاستكشاف الأسلوبي ذو الطابع اللساني و الأدبي في آن واحد على أساس اختبار آلية المزاجية بين الوحدات التركيبية و الاستبدالية، و لعل النموذج التواصلية الذي أدلى به جاكسون من خلال إدراج الوظائف الستة انطلاقا من الوظيفة الانفعالية إلى الوظائف النصية المرتبطة بالمرجعية و الشعرية و الماوارء لغوية و الانتباهية و صولا إلى الوظيفة الإيحائية⁴ هو أفضل

¹ -Merleau-Ponty Maurice. La prose du monde .Ed Gallimard1969. p81.

² -Romane Jakobson .Essaie de linguistique générale .Ed Minuit Paris1963.p218-220.

³ - George Molinie .La stylistique .Ed PUF. Paris 1989 .p58.

⁴ - Michael Riffaterre .Essaie stylistique structurale .Flammarion Editeur. Paris 1971. p 57

مثال تعليلي على ذلك و مع مستهل الثمانينات أصبحت المبادرة في اتجاه انفتاح النص بدلا من انغلاقه في ظل ربط المكون اللغوي النصي بالأبعاد التاريخية و النفسية و الاجتماعية و الاعتناء البالغ بالمنحى التلفظي من زاوية صلة اللفظ بالمفوظ و فيه استدعاء الخطاب و صانعه بل حتى متلقيه من خلال مبدأ لمن يوجه الخطاب ؟ المسألة التي تريد الأسلوبية أن تقف عندها ليس من قبيل التعرف على المفوظ في حد ذاته بقدر النظر في طريقة إنتاجه و تشكله و منه الأثر الدلالي الذي يخلفه و منه تتم معانيه المكونات الصوتية و المورفولوجية و التركيبية التي على أساسها يبنى المقوم الأسلوبي في إطار وصفي محض¹ و في السياق نفسه يأتي مشروع ميكائيل ريفاتير (Michael Riffataire) محاولا في البداية قراءة النص خارج السياق التاريخي و التأصيل النحوي ضمن فكرة تفيد بأن حادثة استقبال السياق النصي الداخلي هو الذي بمقدوره أن يصنع بنية النص أسلوبيا بحسب فرضية اللامتوقع فنكتشف حينئذ بأن الحصيلة التركيبية اللفظية للنص وفق منحى التعارضات و المفارقات من زاوية التلقي و من موضع المتلقي أيضا فتصير مهمة الوظيفة الشعرية رصد الأدبية بالشكل الذي تمنحه آليات البحث الأسلوبي² فريفاتير يتبنى مصطلح الوظيفة الأسلوبية (la fonction stylistique)³ و هو يتطلع إلى رسم معالم هذه الأدبية ، كما تجلت جهود بيار لارتوماس (pierre Larthomas) ضمن بعد جديد عندما ربط بين مقولة الأسلوب بمقولة النوع و هذا ما لازم دراسته الموسومة "اللغة المسرحية طبيعتها و إجراءاتها " (le langage dramatique ; sa nature et ses procédés) فصارت الأسلوبية هي التي تؤسس مقولة النوع و تضبط أنساق وحداته مقارنة بالاختلافات التي قد تراوده وفي ذلك يتم الاستعانة بوسائل غير لغوية يمكن الوقوف عندها عبر عدة عناصر فنية منها حركة الممثلين و عنصر الديكور و البنية المسرحية في حد ذاتها عبر الفصول و المشاهد و الصور و المعلم الزمني الذي تتصل به⁴ و لو تتبعنا أطروحات فيليب هامون (Philipe Hamon) لوجدنا إمكانية تحلي الأسلوبية بحسب الاختيارات الثلاثة المحتملة :

* خيار الدراسة التاريخية للأسلوب فنبحث في مصدر وجوده و منظومة تطوره و كذا طريقة استخدامه في معانيه اللفظ و تشغيل المصطلح مقارنة بين منفذ التنظير و الممارسة التحليلية

* خيار المسلك الجدلي حيث تكون عملية رصد الأسلوب على وقع التضاد ، و منه يتحقق اشتغال الأسلوبية في كل ما من شأنه أن يشعر بنوع من التمرد على ما تقرّه المجالات المعرفية المصاحبة لها في عالم البلاغة و اللسانيات ؛ بما في ذلك القواعد النحوية و مسائل النقد و قضايا الشعرية و كذا فلك التأريخ الأدبي

* خيار المعضلة بمعنى تحري الإشكالية الأسلوبية وفق بعدها المعرفي فتكون تبعا لذلك المساءلة في ماهيتها و إجراءاتها محل إعادة النظر باستمرار . و عليه فكل قراءة أسلوبية جديدة للنص لها إمكانية إعادة بناء و تحديد أركان الأسلوبية و تحديد مضمار عملها⁵

¹ -Ibid. P154-155.

² - pierre Larthomas. Le langage dramatique ; sa nature et ses procédés. Ed 1972 p12.

³ - Philipe Hamon .stylistique de l'ironie In qu'est ce que le style ? Actes du colloque Internationale 11oct 1991 université de Paris Sorbonne .p 150.

⁴ - George Molinie .La stylistique. P43

* هو أبو المحاسن، نقي الدين، أبو بكر بن علي بن عبدالله الحموي، الحنفي، الأزراقي، المعروف بابن حجة (بالكسر) باسم الشهر، يعد من أشهر أعلام الأدب في العصر المملوكي، فقد كان شاعراً على قدر كبير من المعرفة بألوان الشعر التي سادت عصره، و كاتباً مجللاً، وناقداً بلاغياً، ومؤلفاً أكثر في مختلف ضروب التأليف، إذ بلغت تركته الأدبية ما يزيد على ثلاثين مصنفاً، بعضها من إنتاجه الشعري والنثري، وبعضها الآخر من مختاراته الشعرية والنثرية، وهي بين مفقود ومخطوط ومطبوع، انظر ترجمته في: الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في

ليأتي جورج موليني (George Molinie)¹ ليؤكد أن أولويات الأسلوبية أن تبقى ممارسة بنيوية بالدرجة الأولى دون استبعاد اللجوء إلى علم العلامات وفق مصطلح سيميو أسلوبية (sémioylistique) و استغلال المنحى التداولي ومسالك التلفظ حتى تتم متابعة النص الأدبي و مقارنته في نطاق اللغة التي تكوّن به بشكل أكثر دقة .

منهج التعامل مع الشاهد البلاغي عند ابن حجّة الحموي في كتابه: "خزانة الأدب وغاية الأرب"

Approach of Ibn Hijjah al Hamawi in dealing with rhetorical evidence in
his book: Khazanat al-Adab wa Ghayat al-Arab

الدكتور أحمد غالب الخرشنة*

Dr.Ahmad Ghaleb Alkresheh

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، 219/7، والسخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، 35/11، والشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، 164/1، وسليم، محمود رزق: تقي الدين بن حجّة الحموي، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1962، ص 20 . 35 .
والريداوي، محمود: ابن حجّة الحموي شاعراً وناقداً، دار قتيبة، دمشق، (د.ط)، 1982، ص 40 . 53 .
5. خليفة، حاجي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، (د.ط)، 1982، 233/1.
1. انظر، أبو زيد، علي: البديعيات في الأدب العربي (نشأتها، تطورها، أثرها)، عالم الكتب، دمشق، ط1، 1983، ص46.